

السيميائيات والدلالات أشكال الحدود الاصطلاحية

ابن مسعود محمد العربي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة زيان عاشور بالجلفة

ينصرف الكثير من الباحثين إلى استعمال السيميائيات sémiotique كمقابل للدلالات sémantique أو على العكس من ذلك، وهو الشيء الذي يصفه برنارد توسان Bernard Toussaint بالخلط؛ بقوله: ((إن الخطاب الصحفي يخلط بين استعمال الدلالات والسيميائيات، وفي بعض الأحيان لا نكاد نلامس الاختلاف الموجود بين الاصطلاحين))¹. وينبها إلى هذا جون ماري كلنكينبريج Jean Marie Klinkenbreg أيضا؛ بقوله²: ((الدلالات لا يمكن خلطها بالسيميائيات))؛ ويقول أمبرتو إيكو Umberto Eco³: ((تبدأ السيميائيات دائما يبدأ بالظهور ذلك الكيان الذي مازال غامضا، والذي هو المعنى، ولا يعني هذا أبدا خلطها بالدلالات التي تعنى أو تظهر بأنها تهتم بالمعنى والدلالة)).

وفي سياق هذا الإشكال، كتب جورج مونان Georges Mounin بعنوان عريض السيميائيات ليست على الإطلاق الدلالات⁴، ليلاحظ من جملة ما يلاحظ، وجوب الاحتراس من استفحال خطر وصف الدلالات بأنها دراسة للدلالات كلها، مثل شكل السحاب وعلوه، ومنحنى تخطيطي، وارتفاع درجة حرارة المريض، وسلسلة التبادلات النقدية في البورصة، ووجود نباتات في أرض دون أرض أخرى، وهيئة إناء في مجموعة حفريات أثرية... الخ، ومن ثمّة كيف يمكن أن نستكشف أو نوّول دلالة قرينة ما أو أي عرض مرضي؟ هل نحصل عليه بالطريقة نفسها المستعملة في فك سنن code دلالة العلامة اللسانية؟

يحتمل عدم التكلم عن الدلالة هنا أو حتى التكلم عن الدلالات في هاتين الحالتين سواء بسواء، وذلك نتيجة خلط وقائع حاملة لدلالة بالوقائع اللسانية التي تضطلع

بنقل الدلالات اللسانية. يضاف إلى ذلك أن خطورة هذا الخلط تزداد تعاضما عندما تنتقل بمزايداتنا إلى مجالات أخرى، تكون أيضا منشغلة بمواضيع من شأنها تحويل الدلالات ونقلها مثل: المسرح، والتصوير، والنحت، وصناعة الأفلام، والملصقات، والسفونيات الموسيقية، ومادامت هذه الظواهر الحاملة للدلالة تستند إلى النسق نفسه، مما تكون الوحدات اللسانية بالنتيجة نفسها، وعليه فمن المجازفة فهم هذه الظواهر بالتكلم عن الدلالات الموسيقية أو التصويرية أو الأفلام، ومن ثمّة لا تتم معالجتها إلا في الدلالات اللسانية. وعلى هذا الأساس حسب⁵ جورج موان فإنه ينبغي تجاوز هذا الخلط الاصطلاحي، لذلك ينبغي أن لا نخلط الدلالات بالسيمياءات التي هي علم يدرس السيرورات الدلالية أو الأنساق التواصلية.

وإذا انتقلنا إلى الثقافة العربية نقف عند الإشكال نفسه الملاحظ على مستوى الثقافة الغربية، إذ ألفينا الأستاذ أحمد يوسف في أحد مقالاته يعطيها الوصف نفسه؛ حيث يقول⁶: «إن كثيرا من الباحثين يخلطون بين علم الدلالة والسيمياءية لوجود نقاط اتفاق وتلاق بين هذين العلمين وبخاصة إن مفهوم الدلالة لدى العرب يتطابق مع مفهوم العلامة كما يعرفها السيميائيون المعاصرون فإن هناك فروقا كبيرة بينهم».

وفي سبيل استجلاء الفرق بين الحدين، نحاول رصد بعض مواقف المطابقة بين الاصطلاحين على مستوى الكتابة السيميائية العربية، ويمكننا أن نقف على حضور للمسألة في سياقين من الاستعمال لدى المحدثين:

1- في سياق محاولة التأسيس للدرس السيميائي لدى القدماء من العرب بالعودة إلى جهودهم الدلالية ومقارنتها بما جاءت به السيميائية المعاصرة، وهي تكتسي طابع تراثي تأسيسي.

2- وإما في سياق دراسات حديثة تحاول الاستفادة من النماذج السيميائية الغربية في صورة ترجمات، أو تطبيقات على النصوص وهي ذات طابع حديثي.

لقد اهتم القدماء من علماء العربية بمبحث الدلالة، بيد أنه لم يفرد لها علم خاص مستقل برأسه؛ ولم تستقم في علم يجمعها تحت تسمية تغطي جميع صنوفها؛ وتمظهراتها العلمية والعملية؛ بل بقيت تتقاسمها اختصاصات عديدة كالنحو والبلاغة وعلم الأصول والفقه والتفسير والحديث، وبجهودهم تلك عدوا- من قبل العديد من المحدثين-

أنهم توصلوا إلى ((وضع نظرية مستقلة وشاملة، يمكن اعتبارها أكمل النظريات التي سبقت الأبحاث المعاصرة))⁷. وهم تاليا ((أول من وضع الأسس العامة لنظرية العلامات أو السيمياء))⁸. ولعل هذا كان أحد الأسباب الوجيهة المترسبة وراء إشكال استعمال السيمياءات كمقابل للدلالات، وذلك لما جعل بعض المحدثين مفهوم الدلالة عند القدماء من علماء العربية شبيه بمفهوم العلامة عند المحدثين، وبذلك انطلقوا في البحث عن وجوه التقارب والتباعد بين ما أتى به المحدثون حول العلامة وما أتى به القدماء لمفهوم الدلالة، في شكل إسقاطات للمفاهيم بعضها على بعض في كنف الدراسة المقارنة، ومن أمثلة ما جرى مجرى ما ذكرنا، ألفينا عمل عادل فاخوري في كتابه الموسوم ب: علم الدلالة عند العرب - دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة ومقال: «علم الدلالة عند العرب» السيمياء.

وبالنظر إلى ما سبق يمكن القول إن ماضي السيمياءات لم يبرح حدود الدلالات، فكانت الصورة التي رسمتها الدلالات لمفهوم الدلالة أو المعنى قديما مبررا نظريا لمطابقتها بالسيمياءات من جهة موضوعها المتمثل في العلامة لدى المحدثين. لكن هل لنا الحق أن ننزل بالعلامة بوصفها موضوعا واسعا إلى مفهوم الدلالة اللسانية بوصفها موضوعا محددًا؟ وهل الدلالة اللسانية حظها من الدرس في الدلالات مثل حظ دلالة العلامة اللسانية في الدرس السيميائي؟ وإن كان كذلك، فبماذا نفسر تجاوز السيمياءات ذلك إلى البحث عن الدلالة ضمن عالم الخطاب؟ وإلى البحث عن الدلالة في جل مظهراتها وأشكالها؟

وعند التأمل في ما كتبه المحدثون حول مظهر السيمياءات في الدرس الدلالي القديم، ألا يمكننا القول بأن دراستهم بقيت في حدود التأسيس؟ لذا نجدنا وجهت اهتمامها إلى أعمال بورس ودو سوسير فقط، ولم تلتفت - في أغلبها الأعم - إلى الأعمال الأخرى التي جاءت فيما بعد، وعليه ألا يمكن القول بأنها اقتصرت على الفترة الأولى من عمر البحث السيميائي، ولم تول عنايتها إلى مراحل اكتمال السيمياءات ونضجها إن صح التعبير؟

وإن أبنا إلى الكتابات السيميائية العربية الحديثة، نجد من أمثلة تطابق استعمال اللفظين تعريف الدلالات بالسيمياءات في كتاب محمد ناصر العجمي الموسوم ب: في الخطاب السردية؛ حيث يقول⁹: ((يطلق على العلم نفسه اسم العلامة ترجمة لمصطلح السيميولوجية)). وبالنظر إلى ما أتى على ذكره ناصر عجمي، يبدو أنه اهتم بمسألة تسمية العلم، وما تثيره من تساؤلات وصعوبات أمام الباحث في هذا الميدان.

إلا أنه فضل تسمية السيمياء بعلم الدلالة، لانشغاله بالسيمياء السردية التي تعود أصولها إلى كتاب غريماس الدلالات البنوية.

وفي سياق الإشكالية نفسها، نجد عبد الله حمادي يمزج بين استعمال مصطلحي الدلالات والسيمياء بقوله⁰¹: ((يقف اليوم علم الدلالة - أو علم العلامات أو السيميوطيقا- في مقدمة علوم اللسان... ويهتم علم الدلالة بالعلامة والتي يسميها البعض بالرمز أو الدال)). وهذا الرأي ينطوي على استعمال اعتباطي للمصطلح يظهر من خلال تعدد المكافئ العلمي للمصطلح الواحد، ذلك أنه جعل الدلالات (علم الدلالة) مرادفة للسيمياء (السيميوطيقا) وعلم العلامات ولكي لا يتعثر المصطلح ويتشتت¹¹ ينبغي التخلص من المترادفات، ينضاف إلى ذلك الاختلافات الاصطلاحية والمفهومية التي تبين عنها المصطلحات الثلاثة الرمز والعلامة والدال.

1- التداخل اللغوي والاصطلاحى والمعرفي بين الحدين في الثقافة الغربية:

1.1- التداخل اللغوي:

إن إحدى النقاط الأساسية التي يثيرها إشكال التداخل الاصطلاحى ما بين الحدين، اشتراكهما في الأصل اللغوي الواحد، فإذا عدنا إلى حدي السيمياء والدلالات من حيث الاشتقاق اللغوي، نلاحظ تجانسا صوتيا بينهما (السيمانتيك و السيميوتيك) استأنس له الباحثون، فكانتا في استعمالهم وجها واحدا مستقره البحث في الدلالة أو العلامة، المتماثلتان في الاستعمال أيضا لديهم، ولاسيما أنهما يعودان إلى جذر اشتقاقي واحد في اللغة اليونانية، فمصطلح «الدلالات» *sémantique* مشتق من الجذر الإغريقي *sêmainô* (الدلالة) التي هي بذاتها مشتقة من كلمة *sêma* التي تعني العلامة²¹ والسيمولوجيا حسب دو سويسر³¹ مشتقة من الجذر الإغريقي نفسه، وتحمل معنى العلامة هي الأخرى.

لكن تكاد تكون الحدود بين السيمياء والدلالات من حيث اشتقاقهما مموهة ومتداخلة، ولهذا وجدنا جون ماري كلنكينبريج⁴¹ يشير إلى أن مصطلح الدلالات هو جزء فرعي من اللسانيات، بيد أن المصطلح ذاته سيؤول في آخر المطاف إلى السيمياء برمتها، حيث يتم تطبيقه في الجزء الخاص بمعنى العلامة، في حين تضرب الدلالات بسهمها في اتجاهات فلسفية عديدة تجمعها تحت اسم الدلالات العامة.

وفي السياق نفسه يرى⁵¹ الكاتب أن هناك مصطلحات أخرى مقاربة لهذا المصطلح منها « السيمسيولوجيا » sémasiologie التي كانت في البداية مرادفة لمصطلح الدلالات اللسانية. وبعد ذلك خصصت لتعين منظورين ممكنين للدلالات اللسانية، الأول منهما يعنى بدراسة معنى الكلمات انطلاقاً من أشكالها، قصد معرفة الطريقة التي تحيل بها هذه الأشكال إلى مفاهيم، والثاني منهما يهتم بالطريقة التي المفهوم يعين بها من خلال الكلمات، في الحالة الأولى: نتكلم على sémasiologie وفي الثانية onomasiologie (المشتقة من Onoma الفعل الإغريقي الذي يعني الاسم)، وكذلك هناك مصطلح sémiographie التي تعين علم الكتابة sténographie التي تعين سنن علم الخرائط cartographiques.

وإلى هذا الحد يمكننا القول إن هناك شبها بين المصطلحين يتجلى فيما يأتي:

1- السيمياءيات والدلالات مجالان معرفيان مشتقان من لفظ واحد في الإغريقية يتطابق فيه استعمالهما لاشترائهما في الأصل. وعليه يتجلى كل منهما منشأه مطابق للأخر من حيث وحدة المادة الموضوعية الممثلة في العلامة أو الدلالة.

2- التجانس الصوتي بين اللفظين الناجم عن هذا التداخل الاشتقاقي اللغوي.

1.2- التداخل الاصطلاحي والمعرفي:

إذا كانت الدلالات جزءاً من اللسانيات واللسانيات جزءاً من السيمياءيات كما قال دو سوسير، فإن الدلالات مدعوة في الأخير إلى أن تنضم تحت راية السيمياءيات بوصفها رؤية تستوعب جل الظواهر الدلالية بكل تمفصلاتها في العالم الذي نحيا فيه سواء أكانت لفظية أم غير لفظية. انطلاقاً من وجهة النظر التي ترى وجوب معالجة مسائل الدلالات ضمن المنظور الواسع للسيمياءيات حسب ما دعا إليه هاربرت بركلي⁶¹ لكن ههنا السؤال الذي يطرح نفسه، ماذا يمكن أن يحدث لأبعاد العلاقة هاته، إذا أخذنا بمقولة رولان بارت ((السيمياءيات هي جزء من اللسانيات))⁷¹؟ وفقاً لهذا أليس من الممكن النظر إلى الدلالات اللسانية بأنها أعم وأشمل من السيمياءيات؟ ألا يمكننا بناء نظرية سيمياءية لدراسة الأنساق الدلالية غير اللسانية يحتذي فيها بأنموذج الدلالات اللسانية؟

تبدو في الحقيقة الإجابة عن السؤال بسيطة، فقلب المسألة كما فعل رولان بارت بمقولة دو سوسير تبدو مستحيلة وغير متحققة مع الدلائيات، لأنه إذا ما طرحنا السؤال الآتي: أي أنموذج دلالي لساني يمكننا احتداه من هذا الزخم الهائل من النظريات الدلالية اللسانية؟ سيؤول سؤالنا لا محالة إلى الفشل؛ لأن الدلائيات على خلاف اللسانية لم يكن لها حول لتصل إلى صياغة قواعد كلية عامة؛ لانصرافها إلى الجوهر بدل الشكل؛ مما كان سببا في عدم ثباتها نظريا على رؤية واضحة المعالم؛ ((ولم تصل بعد إلى بناء دلائيات تضطلع بتصنيف أشكال المدلول اللفظي))⁸¹. لهذا السبب نجدها مرجئة في اللسانية البنوية على الرغم من النتائج التي حققتها على مستوى دراسة الأشكال اللسانية، ولهذا ألفينا رولان بارت يشير إلى ضرورة التذكير ((بأن المدلولات ليست على الإطلاق جزءا من اللسانية عند بعض اللسانيين الذين يرون بأنه ينبغي الاهتمام بالدوال وحسب، وأن التصنيف الدلالي ليس من مجال اللسانية))⁹¹. مما يستدعي الإقرار بأفضلية تبني التميز الذي اقترحه غريماس⁰² بكون أن الدلائيات تؤول إلى المحتوي والسيمياءات تؤول إلى التعبير.

لم يستطع أحد أن يقدم نظرية دلالية كافية إلى اليوم حسب جون لاينز¹² Johns Lyons، وهذا ما ينبغي التنبيه إليه عند الخوض في مبحث الدلائيات، وبخاصة إنه لم يحرز أي تقدم مسجل في البحوث النظرية؛ حيث إن غنى المصطلحات الدلالية وتعرجها، أدى إلى غياب الاتساق والانسجام لدى مختلف من كتبوا في هذا المجال.

لقد اكتفت الدلائيات اللسانية بصياغة مجموعة من التحديدات، تفتقر في جملتها إلى الانسجام والاتساق موضوعا ومنهجا، ذلك أنها تعرف بـ:

1- «دراسة المعنى»²².

2- «دراسة معنى الكلمات»³².

3- «دراسة معنى الكلمات والجمل و الملفوظات»⁴².

يبدو أن هذه الحدود - وعلى الرغم من تقاربها الشديد- لا تقدم لنا إجابة واحدة إلى حد الانصراف عن سؤال الدلالة، ذلك أنه بمقدورنا القول؛ إن هذه التحديدات في مجملها تعكس النقطة الوحيدة التي يتفق الدلائليون حولها، والمتمثلة في الدلالة، لكن هل

يمكن وصف هذا بكونه اتفاقا إذا كانت الدلالة يختلف فهمها من واحد لآخر؟

لا يقدم لنا الحد الأول صورة واضحة وذلك لعمومه وإطلاقه في الآن ذاته، يضاف إلى ذلك أنه ((يظل قابعا في حدود مفهوم تغير شكل المعنى، ويميط اللثام عن الخصائص اللسانية للدلالات فقط، دون أن يهتم بأوجهها الأخرى الفلسفية والسيكولوجية))⁵².

يحدد الحد الثاني الدلالات المعجمية بأنها دراسة ((معنى الكلمات بوصفها وحدات يتمحور حولها المعنى في اللغات))⁶²، ومادامت تهتم بالعناصر المعجمية في اللسان، فهي بهذا التصور الدلالي تقترب - في جزء منها - من المعجميات ((أي العلم الذي يريد أن يثبت مبادئ صناعة المعاجم وطرقها))⁷². غير أن النظر إلى مثل هذا الصنيع وفق تصور علمي لمعاني الكلمات لا يقدم لنا يقينا عن معانيها، حتى وإن كان تصنيفها للدلالات يقوم بإخضاعها إلى مجموعة من الأسس الاستعمالية التي يمكن أن ترد فيها، كما هو موجود في المعاجم اليوم، لاسيما أن هناك من الكلمات ما يصيبها التغير نظرا لظروف تاريخية أو اجتماعية، وهو ما يزيد الإشكالية تعقيدا. كما أن المعاجم تختص ألفاظها بفترات معينة وبمخصصات محددة، وعند ما نحاول فهم معنى كلمة ما، بالنظر إلى المعجم نقع في معيارية التحديد المعجمي المسبق للدلالة، لهذا نلاحظ اليوم وجود أجيال من المعاجم إن صح التعبير، تضيف إلى رصيدها معان جديدة مع كل إصدار جديد، فهل ينبغي أن نطلع عن كل عمل قاموسي جديد لمعرفة دلالة ما؟ ومادامت الكلمات حاملة للدلالة، فإنها ليست سوى علامات لسانية، إلا أن دراستها في سياق معزول على طريقة المعجم، يقلص من حظوظ دلالة استعمالها في الحياة الاجتماعية، وتبقي بذلك في حدود الدلالة التقريرية، وما يثبتته المعيار القاموسي، وتبتعد بهذا المنوال عن الواقعية العلمية.

يرى غريماس⁸² أن الدلالات المعجمية حافظت على الكلمة بوصفها وحدة قاعدية في تحليلاتها، مثلما شاع في نظرية سايبير وولف التي كانت تصنيفية في عمقها، إذ لم تعط إلا نتائج جزئية ومحدودة. ومن هنا كانت السيمياءات ثورة على مفهوم الكلمة. لأن ((اللسان ميدان للتمفصلات والمعنى تقطيعي قبل كل شيء. وتاليا إن المهمة المستقبلية للسيمياءات - إلى حد ما - تتمثل في العثور على التمفصلات التي يحدثها الناس في الواقع أكثر مما تتمثل في وضع معاجم للأشياء))⁹². إن هذا النزوع الجديد في البحث عن المعنى يرمي إلى دراسته بوصفه واقعة متغيرة بتغير التمفصلات المعيشية واختلافها، لهذا كله لا ينبغي النظر إلى المعنى بوصفه معطى جاهزا جاثما على صفحات

المعاجم. بل ينبغي تحكيمة إلى المقتضيات التداولية والسنن الاجتماعية.

أما الحد الثالث يبدو أنه يتسع ليشمل ثلاثة عناصر هي الكلمات والجمل والملفوظات، ويمكن إدراجه في الدلالات العامة التي تسعى إلى الاعتناء بكل الظواهر الدلالية المتعلقة بكل أنساق استعمال اللغات الطبيعية وتمظهراتها، ومنها فهي ((ترتبط بالفروع الدلالية كلها، التي تقتبس منها وجهات النظر المختلفة كلها، ومستويات التحليل اللساني، والفونولوجي، والملفوظي، والمنطقي، والتاريخي، ويمكن النظر إليها بوصفها ميدانا للتخمين وحسب، يظهر مجال دراسة موحد في حدود غير محصورة بدقة))⁰³. إن موضوع الدلالات لا يجد أساسه العلمي في موضوع موحد ووحيد، ويشهد على ذلك توزيعه بين عدد من الحدود، ذلك أن نماذج الوصف والتحليلات الدلالية بأسرها مقتبسة من الفروع اللسانية الأخرى مثل الصوتيات والفونولوجيا أو من علوم أخرى بيولوجية؛ وأنثروبولوجية؛ وعلم الاجتماع؛ وعلم النفس؛ والإعلام الآلي؛ والمنطق. فالتساؤل إذا ما كانت الدلالات تمتلك مسارا علميا ثابتا، ستكون الإجابة عنه صعبة، ويعود هذا إلى أن أصول كل نظرية مختلفة في أساسها، من حيث منشؤها في ظروف فكرية معينة، وفي فترات مختلفة.

ولما كان للسيمياءات امتدادا واسعا في معالجة الظواهر الدلالية، فإنه لا بد من تحديد موقع الدلالات داخلها، لأن الدلالات كانت بالنسبة لغريماس عتبة ثانية بعد المعجميات قبل وصوله إلى النظرية السيميائية. إن سيميائية مدرسة بارييس-الممثلة في شخصها غريماس- لم تتبلور دفعة واحدة، بل عرفت تراتبا انتقاليا لعلوم ثلاثة: هي المعجميات؛ والدلالات؛ وانتهاء بالسيمياءات. حيث يعد كتابه «الدلالات البنوية بغض النظر عن عنوانه ميثاقا للسيمياءات اللسانية»¹³.

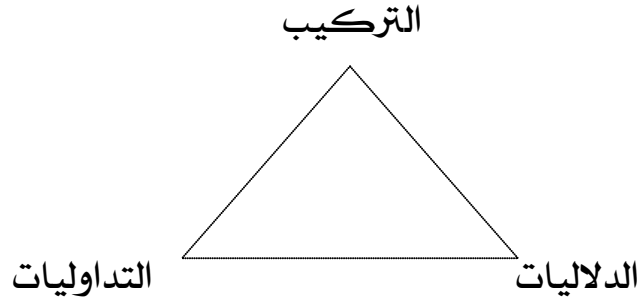
وما يزيد المسألة تعقيدا، أن الكثير من المفاهيم الدلالية لم تبق حبيسة ما كتبت لأجله في كتب الدلالات، عندما استثمرها السيميائيون في كتاباتهم وبحوثهم عاملين على تطويرها من خلال تطعيمها بمفاهيم أكثر نضجا وتطورا، أخذت بها أبعادا أخرجتها من تلك الدراسة الأولية، ووسعت من حدود إجرائها خدمة لأهداف البحث السيميائي، ولعل هذا كان مصدرا من مصادر الخلط بينهما أيضا. إذن، فهل يمكن القول إن هذا الارتحال للمفاهيم هو مجرد ضرب من التناسل النظري الحاصل بينهما؟

وما يعضد هذا الرأي ما نجده من مصطلحات ومفاهيم أصبحت من رصيد السيميائيين الآن، وإنما كانت من قبل أساسا موجودة في ثنايا الأبحاث الدلالية السابقة عن النظرية السيميائية، وإذا كان لنا الحق في ذكر نصيب منها قصد التدليل على ذلك نذكر ما يلي: البنية العميقة، والبنية السطحية، ومفهوم التحويل (تشومسكي)، وحقول الدلالية (بيار جيرو)، المحاور الدلالية، التحليل المؤلفاتي والسمي، فهل بقيت هذه المفاهيم محافظة على حمولتها المعرفية وأهدافها البحثية كما كانت عليه في الدلالات؟ أم أصابها التبدل والتغير في حضان السيميائية؟ هل حضورها في الكتابات السيميائية كان من قبيل استثمارها ليس إلا بعد ما أثبت نجاعتها في الدرس الدلالي؟ هل يعني هذا التوارد للمفاهيم والمصطلحات وجود امتداد طبيعي بين الدلالات والسيمياءات؟ وهل يدل اختلاف الأهداف المرجوة بينهما في الوقت نفسه على قطيعة فعلية حدثت؟

2- الدلالات بوصفها جزءا من السيميائية العامة:

إذا رمنا العودة إلى السيميائية الأمريكية فإننا نلاحظ تطورا لنظرية العلامات عند بورس أبان عنه شارل موريس من منظور سلوكي، وتلاه في ذلك عدد من المناطق واللسانيين، ومن ثم كانت الدلالات جزءا عندهم من السيميائية، ويندرج هذا التصور ضمن التجزئة الثلاثية المقدمة من قبل بورس إلى السيميائية بوصفها مكونة من ثلاث علوم هي²³: النحو الخالص، والمنطق الحقيقي والبلاغة الخالصة، وأعاد صياغتها الأمريكي شارل موريس في كتابه «أسس نظرية العلامات» 1938، وههنا في ظل مفهوم بورس هل يمكن القول بأن السيميائية بمنزلة العلم المشترك الذي يأخذ منه مجموعة من ضروب العلوم والمعارف؟ هل يكون الحديث عن علوم دلالية متعددة أم عن علم واحد؟ والذي يعيننا من هذا كله أن علاقة وثيقة الصلة بين السيميائية والدلالات، التي هي سلفا بلا شك علاقة عموم بخصوص، سواء كما أقر ذلك أتباع بورس أو كما حددها غريماس الذي بدوره يقول بذلك في كتابه الدلالات البنوية:³³ ((مادامت الدلالات من حيث موضوعها تعنى بدراسة الألسن الطبيعية ووصفها، فهي في الحقيقة جزءا من علم الدلالة الواسع جدا الذي هو السيميائية بالمعنى السوسيري للمصطلح)). وإذا جاز لنا أن نشير إلى الاختلاف الموجود بينهما، ألا يمكننا القول بأن أتباع بورس انطلقوا من قناعة مسبقة أو من فكرة قبلية معترفين بأن السيميائية علم عام يضم فروع ثلاث، يمكن تحديدها بالنظر إلى سيرورة العلامة، ومن ثم كانت بالنسبة لهم التداوليات تتموضع في

مجال المؤول والدلائيات في مجال الموضوع والتركيب في مجال الممثل. ويمكن التمثيل لهذا بالمثلث الاتي:⁴³



يرى أدام شاف أن شارل موريس انطلق من مصادرة فحواها أنه ((ينبغي على أي نظرية عامة للعلامة أن تأخذ في الحسبان العلاقة الموجودة بين العلامة والذي ينتجها أو يشعر الإنسان بها في الوقت نفسه، هذه الوجهة هي لسؤال عام كان مهما من قبل التخمينات المنطقية قد حلل من قبل الذرائعية pragmatisme وعلم النفس السلوكي))⁵³. وعليه كانت رغبة موريس تهدف إلى بناء سيمياءات عامة ((لفهم مبادئ وأشكال النشاط الإنساني وعلاقاتها المتبادلة، لأن كل هذه النشاطات، وكل العلاقات تعكسها العلامة))⁶³. وفقا لهذا النشاط النظري المؤسس على مقياس تداولي، أخذت العلامة موقعا جوهريا يلامس الواقع الإجرائي لسيرورة الدلالات المفتوحة داخل المجتمع، من أجل وصف كامل منتظم للوقائع الدلالية باعتبارها غير معزولة بمفردها، بل تشتت معرفتها سلفا إدراك المستوى التركيبي و التداولي، من منطلق أن هنالك تدرجا يسهم في بناء العملية السيمائية وتنسيقها بالنظر إلى منطلق العلامة.

ومن هنا يمكننا القول إن المفهوم المركزي الجامع لهذه المراحل الثالث هو مفهوم العلامة المكون من اجتماع ثلاثة أشياء في واحد، أو ما يسميها اتحاد شيئين في شيء ثالث متميز عن الأولين، فالعلامة عند بورس هي علامة عامة وثلاثية وتداولية⁷³، وكل علامة هي ثلاثية بمعنى أنها تستوجب مشاركة ثلاث لحظات وهي العلامة (الممثل)، الموضوع (الممثل) والمؤول المنتج لعلاقتها. إن كل عملية سيمائية، كائنة ما كنت طبيعتها، هي بحاجة حتما لتداخل المراحل الثلاث المكونة لنظرية العلامات.

يشير روبرت مارتي إلى أن هذه الأجزاء الثلاثة للسيمياءات هي بمثابة فترات تأخذ بمعناها الفلسفي، ويسميتها موريس بالأبعاد السيمياءية ويسميتها بيار جيرو Pierre Guiraud بالعوامل، ويعرفها موريس حسب ما ذهب إليه جون لاينز؛ بقوله: ⁸³ ((إن التداوليات هي ذلك الجزء من السيمياءات الذي يعالج الأصل والاستعمال وأثار المعنى في السلوك، والدلالات تدرس دلالة العلامات في حدودها الممكنة كلها، والتركييب يعالج تنظيم العلامات دون أن ينشغل بدلالاتها الخاصة أو بعلاقتها بالسلوك حيث تتمظهر)). إن هذا الضرب من التقسيم يسعى إلى تكريس فلسفة الدلالات المفتوحة التي لا يمكنها أن تتحقق إلا في ظل الإقرار بعلاقة العلامة بمستعملها، وبموضوعها الذي تعينه في الواقع العيني، وبالعلاقة العلامة بالعلامات الأخرى نفسها.

يشير جون لاينز ⁹³ في أثناء حديثه عن تقسيم الثلاثي إلى أن كارناب يتعارض في التميز الثلاثي مع الصياغة الأولى لموريس، إذ إنه يعمل على حصرها في الألسن الطبيعية والحسابات المنطقية؛ ذلك أنه ((إذا أشرنا صراحة خلال دراسة ما إلى الذات المتكلمة locuteur أو بمصطلح أكثر عمومية مستعمل اللغة utilisateur du langage، نكون بذلك في مجال التداوليات، أما إذا استبعدنا مستعمل اللغة فنحن في مجال الدلالات، وفي الأخير، إذا استبعدنا كذلك هذه المميزات محللين العلاقات بين التعابير فنحن في مجال التركييب المنطقي)) ⁰⁴. والجلي أن النقاش كله يتمحور حول مفهوم العلامة بكونها إنتاجا دائما للدلالات يخضع إلى القواعد التداولية والدلالية والتركييبية، مما يعبر حقيقة عن اتساع المجال الإجرائي للغة الطبيعية ويتداخل عناصرها وتعقيدها، إذ تتداخل في تحديدها مستويات متعددة، منها ما يتعلق باستعمال المتكلمين ومقاصدهم الكلامية ومنها ما يرتبط بالقواعد أو التركييب المنظم لذلك البناء.

وفي هذا السياق، كتب ايكو مقالا يقرفيه بفضل سيمياءات بورس في إرساء معالم الدلالات بعنوان: «بورس والدلالات الحديثة»، ويهدف من خلاله إلى إظهار خصوبة مفهوم المؤول خلال دراسة العلاقة بين التعبير والمحتوى في إطار نظرية «وظيفة العلامة»؛ بقوله ¹⁴: ((إن دراسة وظائف العلامات ليست إلا جزءا من السيمياءات العامة، وهذه يعنى نظرية الدلالة المكملة لنظرية التواصل التي تأخذ في حسابها سيرورة التلفظ أيضا. لقد أمدنا بورس بإحساءات عملية لصالح هذه النظرية برمتها)). ومن هنا فإنه يدعو إلى ضرورة دمج الدلالات في النظرية السيمياءية.

وفي المقابل لما سبق ذكره، إن أبنا إلى غريماس نجد السيمياءات عنده معطى بعدي محكوم بانتقال تطورت ضمنه المفاهيم، بغية فهم أفضل للمعنى أولا، ولتجاوز عجز المعجميات والدلالات ثانيا، بحثا عن حلول جديدة لسد الفراغ المورث أعقاب التعاليم اللسانية اتجاه الدراسة الدلالية، وهذا ما دفع غريماس في الأخير إلى اقتراح السيمياءات كاختيار لامناس منه بعد أن تأكد له ضآلة النتائج التي يمكن أن يتوصل إليها دارس المعجميات أو الدلالات على حد سواء. ويمكن أن نمثل لهذا بخط مستقيم:

المعجميات	الدلالات	السيمياءات
1956	1966	1970

←

ومن هنا نجد الارتكاز على السيمياءات في معالجة قضايا الدلالات اللسانية يكتسي بعدا مهما، لكونه مسعى يتصف بالشمولية؛ والقدرة على استيعاب النماذج الدلالية بأسرها؛ سواء أكان ذلك على مستوى المتصورات النظرية أم الإجراءات التطبيقية، ولهذا وجدنا الكثير من السيمياءيين يؤكدون وجوب الاقتداء بالسيمياءات نظرا إلى الأهمية الكبيرة التي تأخذها كل يوم، حيث أصبحت (تشد إليها الباحثين بوصفها تنسيقا بين العلوم، إن معرفة هاته العلامة ومنوال توظيفها يسمح بفهم ميادين المعرفة وتطبيقاتها كلها) ²⁴. فهل بعد هذه البسطة المعرفية يمكن الانتهاء إلى القول إن السيمياءات هي فلسفة جديدة لمقاربة المعنى على غرار الدلالات؟ وهل نستطيع أن ندرس مسائل الدلالات اللسانية داخل المعطى السيمياءاتي؟

على الرغم من أن الدلالات اللسانية تمتلك استقلالاً نسبياً في معالجتها للمسائل الدلالية، إلا أنها تشهد تواردا واسعا لمؤلفات مختلفة ومتراكمة تغطي مساحة من البحث اللساني والمنطقي، ويعكس هذا الاختلاف تنوعا في وجهات النظر المنتجة، لكن لكونها اهتمت بالدلالة أو العلامة برمتها، فهي في أغلبها تساءلت عن كيفية إدراكها، وكيفية فهمها، وطالما أن هناك من المفاهيم مثل العلامة، الدال، المدلول، دلالة، تتمركز في قلب المسألة اللسانية، فإنه وفي هذا ينبغي علينا أن نربطها بمجالها الواسع مادامت اللسانيات

جزءاً من السيمياءات، وبخاصة الجوانب، الصوتية، والتركيبية النحوية، والتداولية الاستعمالية التي تسهم في إيجاد حلول للمسألة الدلالية في جانبها السيمياء العام

الهوامش

- 1 - Bernard Toussaint, Qu est ce que la sémiologie? , Ed privat, 1978, p. 31
- 2 - Jean – Marie Klinkenbreg, Précis de Sémiotique générale, publié dans collection points essais, imp. en France 2000.p. 27.
- 3 - Eco Umberto, la structure absente- Introduction à la recherche sémiotique-, Mercure de France, 1972, p. 24.
- 4 - Mounin Georges, La Sémantique, éd Seghers, Paris, 1975, p. 8.
- 5- Voir Mounin Georges, La Sémantique, p. 9.
- 6- أحمد يوسف، سيمياءات التسمية، مخطوط، جامعة وهران.
- 7 - عادل فاخوري، علم الدلالة عند العرب – دراسة مقارنة مع السيمياء الحديث، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط 1، بيروت لبنان 1985 ص 5.
- 8- قاضي عاطف - علم الدلالة عند العرب – السيمياءمجلة العرب والفكر العالمي، العدد 18 / 1992 بيروت لبنان ص 127.
- 9- محمد ناصر عجمي، في الخطاب السردى، نظرية غريماس، الدار العربية للكتاب، 1993، صص 21، 22
- 10 - عبد الله حمادي، تأمل في الخطاب الشعري المعاصر من منظور دلالي، السيمياءية والنص الأدبي، ملتقى جامعة عنابة باجي مختار، 15/ماي 1995، ص 104.
- 11- بوبكر فراحي، المصطلح العربي العلمي ترجمة أم تعريب معاصر، كتابات معاصرة، مج 5، بيروت، 1994. ص73.
- 12 - Pierre Guiraud, la Sémantique, PUF, 1966, p. 6.
- 13 - voir Saussure, Fernande, Cours de linguistique générale, Payot, 1985, p. 33.
- 14 - voir Jean – Marie Klinkenbreg, Précis de Sémiotique générale, publié dans collection points essais, imp. en France 2000.p. 27.
- 15 - Ibid, p.27
- 16- أبركلي هاربيرت، مقدمة إلى علم الدلالة الأسنى، ترجمة قاسم مقدم، ط1، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1991. ص117
- 17 - Barthes Roland, Eléments de sémiologie, In, Aventure sémiologique, éd, Seuil 1985, p. 19.
- 18- Barthes Roland, Eléments de sémiologie, In, Aventure sémiologique, p.43.
- 19- Ibid, p.43.
- 20 Ibid, p. 43.
- 21 - Lyons Johns, linguistique générale, TD, Françoise Dubios Charlier- David Robinson, éd Larousse, 1972.
- 22 - Pierre Guiraud, la Sémantique, p.5.
- 23 - Lyons John, Eléments de sémantique, tra . J. Durand, Larousse, 1978, p. 9.
- 24 - Pierre Lerat, Sémantique descriptive , edition Hachette, Paris , 1983p.3.
- 25 - Lerne Tampa – Meez, La Sémantique , Que sais – je? , Paris. 1988. p.7
- 26 - Ibid, p 7.
- 27 - Mounin Georges, Clefs pour la linguistique, p. 81.
- 28 - Greimas, A .J, et courtés, J, Sémiotique, dictionaries raisonné de la théorie du langage, p.326.
- 29 - Barthes Roland, Eléments de Sémiologie, In, aventure sémiologie, p. 53.
- 30 - Lerne Tampa – Meez, La Sémantique , Que sais – je? , Paris. 1988.p.8.
- 31 - J- C. Coquet, Sémiotique – L'école de Paris, Ed Hachette, paris, 1982, p..15
- 32 - Bertil Malmberg, La nouvelle tendance de la linguistique, p.191.

- 33 - Greimas, A .J, Sémantique structurale, p. 7
- 34 - voir Nicole Everaert- Desmedt, le Processus interprétatif, pierre mardaga éditeur. p. 28.
- 35 - Schaff Adam, Introduction à la sémantique, trad Gerges Lisowiki , Paris, ed, anthropos, 1969, p. 80.
- 36 - Ibid, p. 80
- 37 - Marty Robert, 99 Réponses sur la sémiotique, réponses n38°.
- 38 - Lyons John, Eléments de sémantique trad. J. Durand, Larousse, 1978. p. 97
- 39 - Lyons John, Eléments de sémantique trad. p.97.
- 40 - Ibid, p. 97.
- 41 - Eco Umberto, Pierce et la sémantique contemporaine, In Langage n°: 58 éd , Larousse,1980, p .75.
- 42 -Josette Rey –Debove, Lexique Sémiotique, Paris, 1ed, PUF, 1979, p. 5.